المحاضرة الأولى

الرواية بين النشأة و التنظير

لقد ارتبط مفهوم الرواية باعتبارها جنسا أدبيا بأسباب عدة لا يمكن أن نحيط بها جميعا و ذلك لتداخل المكون الثقافي بما هو اجتماعي و سياسي واقتصادي.

ولكن بعض النقاد حاولوا تحديد أسباب ظهورها حين ربطوا بين ظهور الرواية والتحولات التي عرفها المجتمع الأوروبي خلال فترة صعود الطبقة البورجوازية و قيام الدولة الحديثة في الفرن 19 حيث أن تاريخ الرواية متشابك ـ مثل بتواريخ الفنون كلها ـ بتاريخ ارتقاء المدنية و الحضارة ، وولادتها تتصل بالعصور الحديثة التي بدأت مع ما سمي بعصر الأنوار الأوروبي

ترسخت قوانين الفنون الأدبية و تقاليدها عبر أزمان طويلة ، و التحولات التي طرأت عليها كانت بطيئة غالبا وبعض من تلك القوانين والتقاليد ظل قارا لا يستجيب لعوامل التغير كما هو الحال مع بنية الشعر الكلاسيكي .

لكن الرواية تكاد تتملص من ضغط هذه الحقيقة أكثر من أي نوع أدبي آخر ، و منذ 'سرفانتس' الى 'بلزاك' الى 'ديوستوفسكي 'الى 'أندري جيد' الى 'بروست' الى 'فرجيني وولف' الى 'آلان روب غرييه' ... و مئات الأسماء الأخرى تطور الفن الروائي بالسرعة التي تطورت بها التقنيات المادية و العلوم.

الرواية ظلت حديثة على الدوام، فالشغل الشاغل للرواية دائما و على نحو رئيسي هو الحياة و تطورها و اتجاهاتها و سماتها. و انعكاساتها وهذا ما جعل من الرواية الفن المتميز بالمكانة العظيمة في اطار الثقافة الانسانية لأنه هو الصوت الناطق عن الحياة وكتابتها .

الرواية تمثل نوعا من الذاكرة الجمعية المميزة ككل جغرافية بشرية فالرواية في عالم اليوم تؤدي الوظيفة التي نهضت بها الأسطورة و الملحمة قديما .

الرواية معلم حضاري و ثقافي تنهض به العقول الراقية في مختلف الانشغالات المعرفية و تعمل على فتح آفاق جديدة أمام الوعي البشري و الخيال الانساني .

فالرواية اذن ذات سيرورة متجددة ولانهائية على خلاف بقية الأجناس (الملحمة و المأساة) المستقرة في شكلها النهائي على عناصر ثابتة .

الرواية بوصفها شكلا أدبيا تتصف بأربع سمات أساسية تميزها عن باقي الأنماط الأدبية هي:

ـ 1 ـ أنها شكل أدبي سردي يحكيه راو و بهذا تختلف عن المسرحية التي تحكي قصتها من خلال أقوال و أفعال شخصياتها

ـ2 ـ طويلة و تغطي فترة زمنية طويلة كذلك و تضم عددا كبيرا من الشخصيات

ـ3 ـ تكتب بلغة نثرية

ـ4 ـ عمل قوامه الخيال و بذالك تختلف عن التاريخ و السيرة الذاتية اللذين يحكيان عن أحداث و أشخصيات حقيقية

وتقدم الرواية رؤية انسانية لقضايا البشر و لأزماتهم وجوهر هذه الرؤية يتمثل في البحث عن القيم الأخلاقية التي توفر التوازن للإنسان وهو يواجه الصراع ويحاول مستميتا التوصل لتثبيت قيمه التي يؤمن بها ويراها وسيلة استمراره في الحياة .

والتراث الفكري الأدبي ـ والإنتاج الروائي يمثل جانبا أساسيا منه ـ يمثل الجانب الروحي للأمة ،والنقد المواكب لمسيرة الرواية يقوم بالبحث عن القيم الانسانية والأخلاقية و الجمالية التي تمثل عناصر استمرارها ولحظات نموها وتحديد عناصر وحدتها الفكرية و الجمالية من خلال القضايا الانسانية التي يعالجها الانتاج الروائي الذي أصبح سجلا ثقافيا هاما يصور الهموم الحقيقية والأحاسيس الصادقة التي يعيشها الانسان في واقعه المعقد الذي ولدته الظروف الحضارية الجديدة التي أدت الى تغير وتبدل الثقافة بصورة غير مسبوقة خاصة وأن كل تنظيم جديد للمجتمع يستتبع بتشكيل جديد للفن القصصي يتفق مع مصالح المجتمع ورؤيته للحياة وآفاقه المستقبلية.

ماهية الرواية

كانت الرواية في أوروبا جنسا أدبيا مغمورا و خطابا سرديا منحطا لا قيمة له،و كانت قراءة الرواية غير مستحبة لكثير من الأشخاص،خاصة وان موقف الكنيسة من كل ما هو في نظرها مدنس و سفلي , و نحن نعلم أن الرواية ارتبطت في ارهاصاتها الأولى باللهو و التسلية والفكاهة بالمقارنة مع الأجناس السامية و النبيلة كالشعر والملحمة والدراما.

وقد ساد هذا التصور السلبي الى غاية القرن 18 ،ولكن الرواية ستعرف النقلة الأساسية في ق 19 و ستصبح مع ,بلزاك, و ,زولا, و ,فلوبير, و ,تولستوي, الشكل الأدبي الوحيد القادر علي استكناه الّذات والواقع , و استقراء المجتمع و التاريخ بصدق موضوعي وتخييل فني بوهم الواقع.

و عدت الرواية عند منظريها ملحمة بورجوازية و أداة الصراع الاجتماعي ضد قوى الاستغلال و القهر،و سلاحا شعبيا لمناهضة الظلم والاستبداد وإدانة الواقع المتردي وتسفيه قيمه

المنحطة والتقييد بالقيم ألأصيلة و البحث عن واقع انساني مثالي افضل تعم فيه السعادة و العدالة و الفضيلة و الحرية والحب حيث يعيش الجميع في سلام .

والعصر الحديث أصبح عصر الرواية بامتياز،لأن الرواية كانت و مازالت الفن الأدبي الأكثر انفتاحا على التقاط مشاكل الذات والواقع والقادرة علي استيعاب جميع الأجناس و الأنواع و الخطابات الأخرى.

كما أنها الجنس المهيمن و المفضل لدى الكثير من القراء بالمقارنة مع الشعر والمسرح .

وفي تحليل ماهية الرواية وتعليل نشأتها الحديثة،يتم ترتيب ظهورها كلحظة فنية لاحقة للحظة الملحمة ، و لتفسير هذا التطور النوعي تكاثرت القراءات والتفسيرات،لكن التفسير الذي قدمه الفيلسوف الألماني "هيجل" له مقام خاص ودور محوري في قراءة تطور الأجناس السردية وتشكيل الكثير من الرؤى النقدية المتداولة في حقل المعرفة ألأدبية فقد استمر التفسير الهيجلي في ثنايا الكثير من المقاربات النظرية اللاحقة،سواء مع "لوكاتش"او"جولدمان".....

طبيعة الرواية

تتسم الرواية بطبيعة نوعية تتمثل في مرونة بنيتها السردية التي جعلتها قادرة على أن تعكس حياة الانسان و صراعاته بكل أشكالها ، ذالك لكونها نوعا أدبيا يرتبط بحميمية مع الواقع الذي ينتجه ولاحتفالها بالتفاصيل الجزئية ،وكل ما يمكن أن يصدر ضمن التجربة الانسانية المتخيلة والمصورة للبشر بطريقة مماثلة لما هم عليه في واقعهم الاجتماعي ، فهي تقدم موازاة رمزية للواقع الحقيقي للبشر وهي حين تفعل هذا فإنما تستجيب لطبيعتها النوعية في الحكي المؤهلة لتصوير مواقف الانسان الحياتية المختلفة ،ولقدرتها على التعمق في أغوار الشخصية الانسانية فتوفق في المزج بين العالم الخارجي و العالم النفسي " الداخلي " لتصبح بذالك فنون القص أساسية في منظومة الثقافة الانسانية المعاصرة وتصبح المعّبر الحقيقي عن الواقع العام والخاص الاجتماعي و الذاتي في آن واحد .

اهمية الرواية :

تعتبر الرواية أداة وحاجة معرفية هامة للإنسان توصل اليها منذ ادراكه الحياة اذ اهتمت الأمم منذ القدم بحكي أخبارهم وتقديم قيمهم ضمن أطر بسيطة مناسبة لظروف حياتهم لتتطور بعد ذالك لبروز الحاجة الى استحداث ألوان و أنواع و أدوات ابداعية جديدة تلائم تطور وارتقاء المجتمع ، وإذا كانت الرواية نبت برجوازي وفق رأي النقاد الذين تحدثوا عن نشأتها لكن الطبقة البرجوازية و كتابها لم يخترعوا فن الحكي القصصي فهذا الفن قديم قدم الانسان متغلغل في كل الطبقات خصوصا الطبقات الشعبية انما الذي فعله كتاب مرحلة سيطرة

الطبقة البورجوازية أنهم أعطوا هذا الفن شكلا جديدا فبدا شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الفنون القديمة ، الأسطورة ، الملحمة ، الحكاية الشعبية ...

فإذا كان الأدب كما قلنا رؤية انسانية لما يحيط بالبشر من أزمات وقضايا ، وهذه الرؤية جوهرها البحث عن القيم التي تساعد الانسان على القدرة لمواجهة الصعاب والعثور على قيمه الجوهرية فأفضل اطار يضمن هذا البحث هو الجنس الروائي ، لأن الرواية تحتفل بالواقع المتخيل وبالتفاصيل الجزئية التي تدور في اطار التجربة الانسانية المتخيلة ، فهي اذن فعلا موازاة رمزية للواقع الحقيقي .

وفي سيرورتها هذه تستجيب لطبيعة السرد التي تؤهلها لتصوير الانسان في كافة مواقفه الحياتية الى جانب قدرتها على الغوص في أعماق النفس الانسانية معبرة عما يدور في أغوار الوعي واللاوعي للإنسان.